التوجيه النحوي للشعر العربي القديم

أ.د. غربـــي بكـــاي

أستاذ محاضر "أ" بقسم اللغة العربية وآدابها

المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي – تيسمسيلت

الجزائر

الاستلام	2019/7/20	المراجعة	2019/8/10	النشر	2019/8/31

الملخص:

تعد عملية نقد النصوص قديمة قدم النص نفسه، فقد روت لنا كتب تاريخ آداب العربية أن علماء العربية كانوا يمارسون النقد اللغوي قبل تقعيد القواعد ووضع الضوابط والحدود، معتمدين في ذلك على الذوق الفني الفردي لكل واحد منهم، وشرطهم ألا يخالف المنتوج الأدبي كلام فصحاء العرب في الصوت، أو التركيب، أو الدلالة، وكثيرا ما كانوا يبحثون للشعراء عن أعذار إذا ما خالف الشعراء سنن العرب في كلامهم، فاستحدثوا آليات لتوجيه الكلام؛ كالقول بالضرورة الشعرية، وتقدير محذوف، سواء كان حرفًا، أو فعلا، أو اسمًا، أو جملة، وتفسير الشعر على غير ما فُهم، وغيرها من الآليات .

الكلمات المفتاحية:

النقد اللغوي، التوجيه النحوي، الشعر العربي القديم، آليات التوجيه.

Grammar Guidance for Ancient Arabic Poetry

Prof. Gharbii Bkay

Professor at Department of Arabic Language and Literature

University Center Ahmed Ben Yahia AL-Wancharissi

Tissemsilt - Algeria

Received	20/7/2019	Revised	10/8/2019	Published	31/8/2019

Abstract:

The text review process is as old as the text it self. The books of the history of Arabic literature have told us that Arab scholars were practicing linguistic criticism Before setting rules and setting limits and controls .They relied on it for individual artistic taste for each of them and their condition that the literary product does not contradict the words of the Arabs in sound, structure or significance, And were often looking for excuses for poets If the poets disagree with the Arabs in their words They developed mechanisms to guide speech Such as saying poetic necessity And a deleted estimate whether it is a letter or a verb, a noun or phrase, an interpretation of poetry that is not understood, and other mechanisms.

Keywords:

Linguistic criticism, grammatical guidance, ancient Arabic poetry, guidance mechanisms.

تمهيد:

لما وضع علماء العربية الأوائل قواعد ومعايير للغة العرب؛ بغية الحفاظ عليها، وعلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من اللحن اختلفت الأراء حول هذه القواعد، فهناك من رآها خير عمل أسداه العلماء للعربية، وهناك من رأى أنّ هذه القواعد تحد من حرية التعبير، وتعرقل المسيرة الأدبية، وتضيق على الأدباء والشعراء؛ لأنها تجبرهم على السير وفقها، ولا تسمح لهم بالخروج عنها، أو مخالفتها، فكانت عقبة كئودًا، وحجر عثرة أمام الإنتاج الأدبي- وأمام هذا الوضع قام عدد غير قليل من العلماء أمثال عبد الله بن إسحاق الحضرمي، وابن جني بمحاولة تفسير معاني الشعراء وتوجيهها رغم مخالفة شعرهم للضوابط والمعايير اللغوية ، ومنه جاء بحثي هذا؛ ليكشف عن مفهوم التوجيه النحوي، وآلياته المنهجية.

مفهوم التوجيه لغة:

جاء في لسان العرب: "وجهت فلانا إذا ضربت في وجهه، فهو موجوه، ويقال: أتى فلان فلانا، فأوجهه، وأوجأه إذا ردّه، وجهت فلانا بما كره، فأنا أوجهه إذا استقبلته، وسمعت به ... ويقال: خرج القوم، فوجهوا للناس الطريق توجيها، إذا وطئوه، وسلكوه حتى استبان أثر الطريق لمن يسلكه... وأجهت لك السبيل أي استبانت، وبيتُ أجهى: لا ستر عليه عليه، وبيوت جهو، وعنز جهواء: لا يستر ذنبها حياءها، وهم وجاه ألف أي: زهاء ألف ووجه النخلة: غرسها، فأمالها قبل الشمال، والوجيه من الخيل: الذي تَخرج يداه معا عند النتاج، واسم ذلك الفعل التوجيه . ..وقيل: التوجيه من الفرس تداني العجايتين، وتداني الحافرين، والتواء من الرسغين . وفي قوافي الشعر التأسيس والتوجيه والقافية، وذلك في مثل قوله:

كليني لهم يا أميمة ناصِب

فالباء هي القافية، والألف التي قبل الصاد تأسيس، والصاد توجيه بين التأسيس والقافية، وإنما قيل له توجيه؛ لأنّ لك أن تغيره بأيِّ حرف شئت، واسم الحرف الدخيل :التوجيه هو الحرف الذي بين ألف التأسيس وبين القافية "1.

ومن خلال هذا يتبيّن أنَّ للتوجيه عدّة معان في اللغة، فهو يعني السير في الطريق؛ حتى يستبين أثر الطريق لمن يسلكه، وفي قوافي الشعر يقع حرف التوجيه بين التأسيس والقافية.

أما في الاصطلاح فهو أن يأتي الكلام محتملا لمعنيين، قال الجرجاني: "التوجيه هو إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين، كقول من قال لأعور يسمى عمرا:

خـــــاط لـــــي عمــــــرُ قَبـــــاء ليــــــت عينيـــــــه ســـــــواء2

والسامع أو القارئ لهذا الدعاء لا يعرف هل هو دعاء له أم عليه .

وهو عند **البلاغيين** "أن يؤتى بكلام يحتمل معنيين متضادين على السواء؛ كهجاء، ومديح، ودعاء للمخاطب، أو دعاء عليه، ليُبلِّغ القائل غرضه بما لا يمسك عليه "3. ومثال ذلك بيت الحطيئة لما قال للزبرقان بن بدر:

دعِ المكـــــارمَ لا ترحـــــل لبُغيتهـــــا واقعُـد فإنّـك أنـت الطّـاعم الكاسـي

ظاهر البيت مدح، وباطنه هجاء، ومعنى البيت أنه لا داعي للسفر والترحال من أجل نيل مكارم الأخلاق؛ فهي لا تأتي معك، لأنّك عالة على غيرك فأنت مُطعمٌ مكسوٌ، وعليه يكون معنى اسم الفاعل "الطاعم والكاسي " يحمل معنى اسم المفعول "مُطعمٌ ومكسوٌ " .

مفهوم التوجيه النحوي:

"هو فعل المتلقي "السامع " فالمتلقي قد يتأمل في نص ما، ويرى فيه أكثر من احتمال إعرابي، فهذه المحتملات الإعرابية هي وجوه إعرابية، وقد تكون الوجوه الإعرابية أو أحد الأوجه أثرا لتقدير إعرابي فيه مخالفة للظاهر حسب مقتضى الدليل "4.

والتوجيه متعلّق بالمتلقي للرسالة اللغوية، لذلك بإمكانه توجيهها الوجه الذي يريد حسب المعنى الذي يتبادر لذهنه، ويراه مناسبا: "ومراعاة المعنى نعني بها ما يدل عليه الاسم، وذلك نحو: "أعط من سألتك"، و"أعط من سألاك"، و"أعط من سألوك" فهذا من مراعاة المعنى "5.

العلاقة بين علماء اللغة والشعراء:

إنّ المتتبع لسيرورة العملية النقدية يرى أنّ النُّقاد كانوا أفضل رفيق، وخير مصاحب للشعراء، ورغم كل الاختلافات والخصومات التي تشب بينهم إلاّ أنهم أفادوا من آرائهم النقدية، فكانوا يراجعون قصائدهم قبل إذاعتها بين الناس، وربَّما بقى الشاعر عاما يُغيِّر، ويُبدِّل، ويُنقِّح، حتى تخرج قصيدته في أحسن حُلَّة، وأبهى صورة، وسُميت هذه القصائد بالحوليات، والمقلدات، والمنقّحات، والمحكمات *،ومنهم من يُغيَّر ويُصحح بعد أن يُنبَّه على ما وقع فيه من خطأ، ومثال ذلك ما وقع فيه النابغة الذبياني من إقواء حينما قال:

أمِـــن آل ميّـــة رائـــحُ أو مغتـــد عجـــــلانَ ذَا زادٍ وغيـــــرَ مُـــــزوّدِ

زعـــمَ البـــوارحُ أنَّ رحلتنـــا غـــدًا وبـــذاك خبَّرنـــا الغُـــرابُ الأســـودُ

فقدم المدينة فعيب عليه، فلم يأبه له حتى أسمعوه إياه في غناء الجارية، فلما سمعه انتبه ولم يعد إليه، وقال: قدمتُ الحجاز وفي شعري صنعة، ورحلت عنها، وأنا أشعر النَّاس، وقيل: لمّا علم بالخطأ غيّره، وقال: وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسودِ "6.

و النحاة لعلمهم بلغة العرب وأساليب نظم الكلام وتأليفه يعرفون جيدًا كيفية تفسير الكلام، وتأويله، وتخريج المعاني والدلالات التي يحتملها، لذلك كان الشعراء كثيرا ما يلجأون إليهم؛ كي يقوّموا أشعارهم قبل أن يذيعوها بين الناس، وبخاصة حينما نعلم أنّ مستوى الشعر انحط عند بعض الشعراء، حتى مجته الآذان، ونفرت منه الأذواق السليمة، فها هو الأصمعي يحدثنا عن شاعر جاء يستشير يونس بن حبيب في شعر كتبه، هل يصلح للعرض والإذاعة بين الناس أم لا، قال الأصمعي: "كنا في حلقة يونس فجاءنا مروان بن أبي حفصة، فقال: أيكم يونس؟ فأومأ إليه فجلس فقال: أصلحك الل ه،إني أرى أقواما يقولون الشعر لَأَنْ يكشف أحدهم عن سوأته، فيمشي في الطريق أحسن من أن يظهر ذلك الشعر، وقد قلت شعرًا أعرضُه عليك، فإن كان جيدًا أظهرتُه، وإن كان رديئا سترتُه، وأنشده:

طرقتْك زائرةً فحيّ خيالَها

قال، فقال له: يا هذا اذهب فأظهر هذا الشعر، فأنت – والله - فيه أشعر من الأعشى" 7.

وتعود البدايات الأولى للتوجيه النحوي واللغوي إلى زمن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وأقرانه؛ حيث عُرف بتتبعه للشعراء، وتخطئتهم إذا خرجوا عن سنن كلام العرب، وقصته مع الفرزدق أشهر من نار على علم، وذلك حينما قال:

وعـضُّ زمـانٍ يـابن مـروان لـم يـدع مـــن المـــال إلا مســـحتا أو مجلَّـــفُ

قال له الحضرمي: بم رفعت مجلف؟ فردّ عليه: بما يسوؤك وينوؤك علينا أن نقول وعليكم أن تتأوّلوا، وربما هذه أوّل إشارة من شاعر إلى النحاة، ليبحثوا لهم عن التخريجات، والتسويغات النحوية لكلامهم، وهذا ما حدث فعلا؛ لأنّه وعلى الرغم من حرص الحضرمي على السير وفق سنن العرب في كلامها ،فإنه كان يُؤول الكلام، ويشرحه، ويفسّره وفق مراد الشاعر، روى أبو القاسم الزجاجي في (مجالس العلماء) أنّ الفرزدق حضر مجلس ابن إسحاق فقال: كيف تنشد هذا البيت:

وَعَينـــانِ قَـــالَ اللهُ كُونَـــا فَكَانَتَـــا فَعُـولاَنِ بِالأَلْبَـابِ مَـا تَفْعَـلُ الخَمْـرُ

فقال الفرزدق: كذا أنشده، فقال: ابن إسحاق الحضرمي: ما كان عليك لو قلت: فعولين؟ فقال الفرزدق: لو شئتُ أن أُسبِّح لسبَّحت، فقال: ابن إسحاق: لو قال: فعولين لأخبر أنَّ الله خلقهما وأمرهما، ولكنه أراد بهما يفعلان بالألباب ما تفعل الخمر " 8 وكان هنا تامة، والمعنى أنّ الله قال لهما أُحدُثا فحدثتا، وكلمة "فعولان " خبر للمبتدأ "عينان "، وهذا التفسير الذي قدّمه الحضرمي دليل واضح على علم ودراية علماء اللغة بالمرامي البعيدة التي يقصدها الشعراء.

وقد شاع التماس التخريج لما يأتي مخالفا لكلام العرب المطَّرد، وسماه الفرزدق "التماس الحيلة "، وقد عُرف عن ابن إسحاق أنه كان يلتمس الحيلة في توجيه ما يخالف القياس في كلام العرب المطرد"9.

وفي التماس العذر للشعراء قام النحاة بالتوجيه والتأويل والتقدير النحوي حتى يفسروا ما انغلق من المعاني، قال الجرجاني: "قد عُلم أنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأنّ الأغراض كامنة فيها حتى يكون الإعراب هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبيّن نقصان الكلام ورجحانُه حتى يُعرض عليه، والمقياس الذي لا يُعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه، ولا يُنكر ذلك إلاّ من يُنكِر حسَّه، وإلاّ من غالط في الحقائق نفسه"10.

آليات التوجيه النحوي:

سجّل اللغويون كل ما وصلت إليه أيديهم، وبلغ مسامعهم من فصيح كلام العرب لحفظ اللغة أولا، والاستعانة بهذه المدوّنة في تقعيد القواعد، وليسهّلوا على الأدباء، والخطباء، والشعراء النهل منها، أو النظم على منوالها، قال شوقي ضيف: "ولا نبالغ إذا قلنا إن اللغويين لم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلي أو إسلامي إلا سجّلوها، و دوّنوها، وفسّروها، وشرحوها، وبذلك انقادت اللغة، وسلست لمعاصريهم من الشعراء وغير الشعراء "11.

ولم يكتفوا بذلك فقط، بل صنعوا لأنفسهم ولغيرهم آليات لتأويل الكلام وتوجيه المعنى، ونقصد بالآليات هنا الوسائل والأدوات الإجرائية التي استخدمها النحاة من أجل توجيه الكلام ليُفهم منه أكثر من معنى ، والكلام الموجّه هو ما تنفتح دلالته على معنيين فصاعدا،قال السمين الحلبي :" الكلام الموجّه المحتمل لأمرين فصاعدا ،ومنه أنّ رجلًا أعور عابه إنسان فقال :جعل الله عينيك سواءً ،يحتمل أنه يريد سواء في السلامة أو في العور، فهو دعاء له أو عليه"12.

ومن هذه الآليات تقدير محذوف سواء كان حرفا أو فعلا أو اسما أو جملة ، والقول بالضرورة الشعرية، وتفسير الشعر على غير ما فُهم منه، والناظر في كتب النحاة يجد تعدد الأوجه الإعرابية للكلمة الواحدة في بيت شعري، وهذه نماذج لتعدد التخريجات والتوجيهات النحوية:

ذكر ابن هشام شرطين لعمل "لا" النافية للجنس هما:1-أن يكون اسمها وخبرها نكرتين، 2-أن يكون الاسم مُقدَّما والخبر مؤخرًا، مثل: لا صاحبَ علمٍ ممقوتُ، ولا طالعًا جبلًا حاضرُ، ولما وجد قول الشاعر:

أرى الحاجـــاتِ عنـــدَ أبـــي خُبيْـــبٍ نَكِـــــدن ولا أُميَّـــــة فـــي الـــــبلادِ

قدّر اسما محذوفا، وهو "مثل " والتقدير: (ولا مثلَ أميةَ)، ولما تحدّث عن الفعل المضارع المرفوع قال: يُرفع المضارع إذا تجرّد من ناصب أو جازم، ولما وجد فعلا مضارعًا مجزوما، وقد تجرّد من الجازم قدّر له جازمًا، وهذا في قول أبي طالب يخاطب النبي ﷺ:

محمــدُ تَفْـدِ نَفْسـكَ كـلُّ نفْـسٍ — إذا مــا خِفْــت مــن شــيءٍ تَبــالا

فقال: هو مقرون بجازم مقدّر، وهو لام الدعاء 13" . والتقدير: محمد لتفد نفسك كُلُّ نفس، وهو دعوة لكل النفوس بأن تفدي نفس رسول الله (ﷺ).

وأما بيت امرؤ القيس الذي يقول فيه:

فــاليومَ أشــربْ غيــرَ مســتحْقبٍ — إثمًــا مــن اللهِ و لا واغــلِ

فقال عنه: ليس قوله "أشرب" مجزوما، وإنما هو مرفوع، ولكن حُذفت للضرورة.

وفي تعليقه على هذين البيتين:

جــزى الله ربُّ النــاسِ خيــرَ جزائِــهِ — رفيقــينِ قــالا خيمتــي أُمّ معبَــدِ

همــا نــزلا بــالبرّ ثــمَّ تــرحَّلا — فــأفلح مــن أمســى رفيــقَ محمــدِ

قال: وكان حقه أن يقول: "قالا في خيمتي أمّ معبد" أي: قيَّلا فيها، ويُروى حلاً بدل قالا، والتقدير: أيضا حلاً في خيمتي، لكنه اضطر، فأسقط "في" وأوصل الفعل بنفسه"14. وهنا نجد ابن هشام يلتمس الأعذار للشعراء باسم الضرورة الشعرية، وإن كانت في بيت امرئ القيس غير مستساغة؛ لأن الشاعر لم يمنعه مانع و لم يضطره شيء، بل لو رفع الفعل وقال: أشربُ" لكان أوضح وأخف في النطق.

كما قعّد النحاة قاعدة يقضون فيها بأنَّه يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره، فيصرفون مالا ينصرف، ويقصرون الممدود، ويحذفون، ويضيفون، وعذرهم في هذا كله الضرورة الشعرية، قال ابن الأنباري في قول الشاعر:

وأنّني حيثُمــا يثنــي الهــوى بصــري — مــن حيثمــا ســلكوا أدنــوا فــأنظورُ

أراد: فأنظرُ ، فأشبع الضمة فنشأت الواو "15.

ولما تحدّث ابن الأنباري عن بدل الاشتمال اشترط فيه ضميرًا يربطه بالمبدل منه، ومثّل لذلك بقوله تعالى :(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ) سورة البقرة 2/ 217، قال : فقوله: قتال فيه بدل من الشهر، والضمير فيه عائد إلى الشهر، ولمَّا وجد بيتا من الشعر لا رابط فيه يربطه بالمبدل منه قدّر له ضميرًا، وقال: أما قول الشاعر:

لقــد كــان فــي حــولٍ ثــواءٍ ثويتُــهُ — تقضــِّي لُبانــاتٍ ويســأمُ ســائمُ

فالتقدير فيه: ثواء ثويته فيه، فحُذف للعلم به "16.

وقدّر الأعلم الشنتمري ضميرًا قبل الفعل الواقع جوابا للطلب في البيت التالي:

ألم تَسْأَلِ الربْع القواء فينْطِقُ — وهــل تخبرنــك اليــوم بيــداء ســملَقُ

فقال: ورفعه على تقدير: فهو ينطق على كل حال، ثم استدرك ذلك، وأبعد أن ينطق فقال: وهل تخبرنك اليوم بيداء سملَقُ، والبيداء الفلاة المقفرة، والسملق: التي لا شيء فيها، والقواء: القفر الخالي الذي لا ينبت " 17.

وجاء في كتاب (الجمل) المنسوب للخليل بن أحمد أنه قال: قال الشاعر:

فِـدى لبني ذُهـل بـن شـيبان نـاقتي — إذا كــان يــومُ ذو كواكــب أشــهبُ

أي:إذا وقع ،وأما قول عنترة :

بنـي أســد هــل تعلمــون بلاءنــا إذا كــان يومًــا ذا كواكــب أشــنعا

فإنه أراد: إذا كان اليوم يوما ذا كواكب أشنعا "18.

ولم يكتف النحاة بالشرح، والتفسير، والتوجيه للأبيات الشعرية، بل جعلوا من بعض الأبيات الشعرية التي قلّ استعمالها، وخالفت ما عليه الكثير من كلام العرب شواهد على قواعد قعّدوها، وهذا ما نجده بكثرة عند علماء الكوفة، فلما قعَّد البصريون قاعدة عدم جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه إلا بظرف أو حرف جر، وشواهدهم على ذلك كثيرة، جوَّز الكوفيون ما منعه البصريون، وقالوا يجوز أن يفصل بينهما "أي بين المضاف والمضاف إليه "بغير الظرف أو حرف الجر، واستشهدوا بشواهد منها هذا البيت:

تمُــرُّ علـى مــا تســتمرُّ وقــد شــفتْ غلائلَ عبدُ القيس منها صُدورَها

والتقدير :غلائلَ صدورِها عبدُ القيس " 19 .

وذهب الكوفيون أيضا إلى أن اسم الإشارة المنادى يجوز أن يُنادى بغير حرف النداء استدلالا بقول الشاعر:

إذا هملتْ عيني بها قال صاحبي لمثلــكَ ،هــذا لوعــةُ وغــرامُ

ومعناه : فيما قالوا : لمثلك يا هذا " 20

وقال ابن قتيبة بعد أن ذكر بيت امرئ القيس:

فــاليوم أشْــرَبْ غيــرَ مُســتحقبٍ إثمًــا مــن الله ولا واغــل

قال : ولولا أنَّ النحويين يذكرون هذا البيت ويحتجون به في تسكين المتحرِّك لاجتماع الحركات، وأنَّ كثيرًا من الرواة يروونه هكذا لظننته: فاليوم أُسْقَى غير مستحقب "21.

يتفاوت العلماء فيما بينهم في إدراك المعاني المقصودة، فقد يرى ناقد أنّ في قول القائل عيبا، ويرى غيره عكس ما رآه، ومثال ذلك ما حدث بين الفرزدق والحضرمي، فقد "روى أبو عمرو أنّ ابن أبي إسحاق سمع الفرزدق ينشد:

وعـضُّ زمـانٍ يـا بـن مـروان لـم يـدعْ مــن المــالِ إلاّ مُســحتًا أو مُجلّــفُ

فقال له ابن أبي إسحاق: على أيّ شيءٍ ترفع" أو مُجلّفُ" فقال: على ما يسوؤك وينوؤك، قال أبو عمرو: فقلت للفرزدق: أصبت، وهو جائز على المعنى؛ أي: لم يبق سواه " 22.

وقال ابن جني: "فأما قولهم: ودع الشيءُ يدع – إذا سكن – فاتّدع، فمسموع متَّبع، وعليه أنشد بيت الفرزدق:

وعـضُّ زمـانٍ يـا بْـنَ مَـرْوانَ لـم يَـدِعْ مــن المــالِ إلاّ مُســحتًا أو مُجلّــفُ

فمعنى لم يَدِعْ –بكسر الدال –أي لم يتَّدع ولم يثبت، والجملة بعد "زمان " في موضع جر؛ لكونها صفة له، والعائد منها إليه محذوف للعلم بموضعه، وتقديره: لم يدع فيه أو لأجله من المال إلا مُسحتَ أو مُجلف"23.

وتثبت الروايات التاريخية أنّ النحاة كانوا أقدرعلى توجيه المعنى، وأكثر إنصافا للشعراء من الشعراء أنفسهم، فقد قال الزجاجي في أماليه: أخبرنا أحمد بن الحسين المعروف بابن شقير النحوي، وعلي بن سليمان الأخفش قالا: أخبرنا أحمد بن يحي ثعلب قال: كان الكسائي والأصمعي بحضرة الرشيد، وكانا ملازمين له يقيمان بإقامته، ويظعنان بظعنه، فأنشد الكسائي:

أَنَّــى جَــزَوْا عَــامرًا سُــوءَى بفعلِهــم أم كيفَ يجزُونني السُّوءَى مِنَ الحَسَنِ

أمْ كيـفَ يَنْفَـعُ مَـا تُعْطِي العَلـوقُ* بـهِ رِئْمَــانُ أَنْــفٍ إذَا مَــا ضُــنَّ بــاللَّبنِ

فقال الأصمعي: إنما هو رئمانَ أنفٍ، بالنصب، فقال له الكسائي: أُسكت ما أنت وذاك، يجوز: رِئْمانُ أنف، ورِئْمانَ أنف، ورِئْمانِ أنف، بالرفع، والنصب، والخفض، أما الرفع فعلى الرد على ما؛ لأنها في موضع رفع بـ(ينفع)، فيصير التقدير: أم كيف ينفع رئمانُ، والنصب بـ(تعطي)، والخفض على الهاء التي في (به)، قال: فسكت الأصمعي "24. فالأصمعي - وهو من هو في اللغة - بدا له وجهٌ واحدٌ، وهو النصب لكلمة "رئمان" في حين استطاع الكسائي أن يوجّه الكلام على ثلاثة أوجه، على الرفع، والنصب، والجر.

التوجيه وفق المعنى:

قيل عن النحاة إنهم لا يقيمون وزنا للمعاني، وشغلهم الشاغل هو المحافظة على الجانب البنيوي، ومنع أي خروج عن النمط اللغوي في جوانبه الشكليه "الصرفية والنحوية " إلاّ أنّ الدّارس للقضايا التي عالجوها يجدهم يولون المعنى أهمية خاصة، ووفق المعاني يكون الإعراب، ومثال ذلك لما قال الشاعر يصف رجلا مشى حافيا في طريق مليء بالأفاعي:

قـــد ســـالم الحيّـــاتُ منـــهُ القـــدما الأُفعـــوانَ والشُّـــجاعَ الشـــجعما

ومعنى البيت : لقد تصالحت قدماه مع الأفاعي لأنهما أضحتا غليظتين صلبتين لطول ما سار حافيا، فهو سالم الحيّات لم يَدُسْها بقدميه، وهي سالمته لم تصبه بأذى، ولعلم النحاة أنّ صيغة فاعل تفيد المشاركة؛ أي إنّ الفعل وقع من طرفين مثل: ضارب، راسل، كاتب. قالوا: يجوز أن تكون (الحيّات) فاعلا، ويجوز أن تكون مفعولا، وكذلك "القدم"، والشاعر "نصب "الأفعوان" وهو بدل من الحيّات، وهو مرفوع لفظًا؛ لأنّ كلّ شيئين تسالما، فهما فاعلان ومفعولان، وهذا التوجيه أسهل من أن يكون التقدير: قد سالمت الحيَّاتُ منه القدم، وسالمت القدمُ الأفعوان "25.

والآراء النقدية تختلف من ناقد لآخر، فقد يُخطَّأُ شاعر في أمر ما، وبعد ذلك يأتي من ينصفه ويوجه معناه على غير ما فهمه الأول، وهذا ما يُعرف في زماننا بنقد النقد؛ لأنه من طلب عيبا وجده، ومثال ذلك إنصاف ابن قتيبة لأبي نوّاس، قال ابن قتيبة: "وقد كان يُلحَّن في أشياء من شعره لا أراه فيها إلاّ على حجة من الشعر المتقدّم، وعلى علَّة بيّنة من علل النحو، منها قوله:

فليتَ ما أنْتَ وَاطٍ مـــــن الثَّـــــرى لـــــي رَمْسًـــــا

أمَّا تركه الهمز في " واطئ " فحجته فيه أنّ أكثر العرب تترك الهمز، وأنَّ قريشًا تتركه، وتُبدل منه، وأما نصبه "رمسًا" فعلى التمييز، والبغداديون يسمونه " التفسير " ألا تراه قال: " فليت ما أنت واطٍ من الثرى لي" فتم الكلام، وصار جواب "ليت " في "لي" ثم بيَّن من أي وجه يكون ذلك، فقال:" رمسًا " أي: قبرًا، كما تقول في الكلام: ليت ثوبك هذا لي، ثم تقول: إزارًا؛ لأنّ جواب " ليت " صار في قولك: "لي" وصار (الإزار) تمييزًا "26.

وتحت قاعدة التوجيه وفق المعنى قالوا أيضا بجواز عطف المنصوب على المخفوض، فالشاعر - حسب رأي علماء العربية- كثيرا ما يريد شيئا ويقول غيره، وقد روت مصادر اللغة والأدب أن النحاة كانوا على قدر واف من العلم والمعرفة مكّنهم من فهم مقاصد الأدباء والشعراء ومعانيهم، فقد نقل ابن قتيبة عن سيبويه بيتا يحتج به في نسق الاسم المنصوب على المخفوض على المعنى لا على اللفظ، وهو قول الشاعر:

مُعـــاويَ إنَّنـــا بشَـــرٌ فأسْـــجِحْ فلســـنا بالجبـــالِ ولا الحديـــدا

قال :كأنه أراد : لسنا الجبال ولا الحديدا فردّ الحديد على المعنى قبل دخول الباء "27.

التوهم:

انتبه النحاة للحالات النفسية التي تنتاب الشاعر فكثيرا ما ينشغل بالمعاني المتواردة والخواطر، ولا يلقي بالا للمبنى، فقال النحاة إن الشاعر قد يتوهم شيئا ويقول شيئا غيره في أثناء نظم أبياته أو قصيدته، ومثال ذلك ما وجّه به القزاز القيرواني المعنى في قول أبي نواس حينما قال:

نبِّـــه نَـــدِيمَكَ قـــدْ نعَـــسْ يسْـــقيَكَ كَأْسًـــا فـــي غَلَـــس

قالوا: الوجهُ "يَسْقِكَ"؛ لأنه جواب الأمر، وهو جزم تسقط له الياء من "يسقيك" كما تقول في مثله: "اِرْمِ زيدًا يَرْمِكَ" فتحذف الياء للجزم، وهذا على ما أُصِّل في الكتب المختصرات على ما قيل، غير أنّ لجوازه وجهًا من العربية، وهو أنّ الشاعر له أن يجري المعتل مجرى السالم، فيتوهم أن الياء كانت متحرّكة، وأنه أسكنها للجزم على أصل ما يُفعلُ في السالم "28.

إعادة التفسير:

ومن آلياتهم في التوجيه أيضا تفسير النّصّ الشعري على نحو جديد من الفهم ينأى به عن العيب الذي أُخذ عليه، ومثال ذلك ما قام به القزاز القيرواني مع بيت أبي تمام الذي قال فيه:

أظُـــنُّ دُموعَهـــا سَـــنَنَ الفريـــد وهـــي سِـــلْكاهُ مـــن نحـــرٍ وجيـــد

قالوا: السنن: الطريق، وأضاف إليها "الفريد" وشبّه الدموع بها، وكان الوجهُ أن يقول: أظُنُّ دُموعها الفريد؛ لأنَّه هو الذي يُشبهُ الدُّموع لا طريقُه، وإنما أراد: أظُنُّ سَننَ دموعها سَنَنَ الفريد، يريد أن يُشبِّه تتابع الدُّموع، وهو سَنَهُ بتتابع الفريد "29.

ومن خلال هذه النماذج التطبيقية للنحاة حول تفسير وتعليل ما جاءت عليه بعض الأشعار، والتماس الأعذار للشعراء تارة، وتخطئتهم تارة أخرى، كل ذلك كان يهدف إلى الرفع من المستوى الفني للشاعر، حتى يسمو بشعره، وتظهر قصائده في أبهى حُلَّة وأحسن صورة، ورغم ما قيل عن معيارية النحاة وصرامتهم في إلزام الشعراء بقيودهم اللغوية والنحوية، فإننا نجدهم في كثير من الأحيان يلتمسون الأعذار للشعراء، فقد قرر الخليل أن: الشعراء أمراء الكلام، ويجوز لهم مالا يجوز لغيرهم، وقال سيبويه: ليس شيء مما يضطرون إليه إلا وهم يريدون به وجها، وهم يفتقون المعاني تفتيقا، ويوجهون كلام الشعراء توجيها مغايرا للفهوم التي فُهمت، والمعاني التي ظهرت، وفهم من غالى في ذلك، حتى وقع في التكلف، فكان عرضة للانتقاد، قال ابن فارس: "وكل الذي ذكره النحويون في إجازة ذلك، والاحتجاج له جنس من التكلف"30.

فهرس الإحالات :

1- لسان العرب لابن منظور دار صادر 2003، ج15،باب الواو .

2- التعريفات للشريف الجرجاني ،ص59.

3- جواهر البلاغة ،السيد أحمد الهاشمي ،،دار ابن الجوزي ،2009م،ص278.

4- التوجيه النحوي وأثره في توجيه الحديث النبوي الشريف ،د/نشأت علي محمود عبد الرحمن ،المكتبة العصرية بيروت ، ط1، 2011م،ص 28

5- الجملة العربية والمعنى ،فضل السامرائي ،دار الفكر ،ط1، 2007م/1428هـ،ص108.

6- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، لأبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني"ت 384 ، تح: محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان ،ط1، 1415هـ/1995م ، ص52/51.

7-- الموشح للمرزباني ، ص72/71.

8- مجالس العلماء لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون ،مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط3، 1999م ، ص66.

9- المدارس النحوية ،خديجة الحديثي ، دار الأمل للنشر والتوزيع ،إربد الأردن ، ط3، ص 56.

10 - دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ،مؤسسة الرسالة ، ط1، 2005/1426م، ص28.

11- تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط6،ج3، ص139.

12- عُمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ،تأليف : الشيخ أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي "ت756ه" تح:محمد باسل عيون السود ،دار الكتب العلمية بيروت لبنان ،ط1417،1ه 1996م ،ج4،ص 288.

13- ينظر : شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، ابن هشام الأنصاري ،دار الطلائع للنشر والتوزيع ، ص 237/ 240 ، و النكت في تفسير كتاب سيبويه ،الأعلم الشنتمري "ت476" ،دار التب العلمية ،بيروت ،ط1، 1425ه/2005م ،ج1،ص361.

14-شرح شذور الذهب، ص261/260.

15- . أسرار العربية ،لابن الأنباري ،تحقيق الدكتور فخر صالح قدارة ، دار الجيل بيروت ، ط1، 1415ه/ 1995م، ص 60.

16- أسرار العربية ،لابن الأنباري ، ص265.

17- النكت في تفسير كتاب سيبويه ،ج1، ص373.

18-كتاب الجمل في النحو المنسوب للخليل بن أحمد ،دراسة تحليلية ،د/محمد إبراهيم عبادة ،منشأة المعارف، الإسكندرية ،مصر ،ص126.

19- ينظر" ائتلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة ،تأليف :عبد اللطيف بن أبي بكر الشرجي الزبيدي "ت802ه" :تح: د/ طارق الجنابي ،ط2:1428ه/2007م ،عالم الكتب لبنان ،ص 52.

20- ائتلاف النصرة ،ص 57/56.

21- الشعر والشعراء ج1، ص95

22- نزهة الألباء في طبقات الأدباء ،لأبي البركات ابن الأنباري ،تح:محمد أبو الفضل إبراهيم ،المكتبة العصرية بيروت ،ط1424،1ه/2003م ، ص28

23- الخصائص لابن جني تح: محمد علي النجار ط41999م ،ج1،ص99

24- أمالي الزجاجي ، أبو القاسم بن إسحاق الزجاجي "ت340ه" ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع ، ص 46.

25- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ،تح: محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الكتاب العربي ،بيروت لبنان، ط1،ج2،ص399.

26- الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ،ج2،ص 664.

27- الشعر والشعراء ج1،ص95 .

28- ما يجوز للشاعر في الضرورة للقزاز القيرواني ،ص100.

29- ما يجوز للشاعر في الضرورة للقزاز القيرواني ،ص105.

30- ذم الخطأ في الشعر لابن فارس اللغوي ،ص 23 .